مفارقات الوعى الغائب:
بين الأرصفة والفتارين! (*)

يحلو لى وسط عناء العمل وشواغله، أن أنتزع نفسى من ركام الأوراق والمعضلات لأنزل إلى شوارع وسط القاهرة، أتابع الناس فى بلادى، مشدوداً على الدوام إلى رصات الكتب على الأرصفة، أو فى فتارين المكتبات التى أخذت تتناقص يوماً بعد يوم لتخلى رفوف الكتب للأحذية والنعال بأنواعها!.. لا تفارقنى الحسرة وأنا ألمس تراجع الكتاب وتقدم الحذاء! ٠

على أن بلوى الكتاب وتراجعه، بدأت تلاحقها بلايا جديدة فى مفارقات غريبة لا يهضمها عقل، وتحتاج إلى نطاسى بارع فى علم النفس يحلل لنا لماذا احتلت أرغفة الخبز الذى نأكله أرضية الأرصفة بوسط المدينة وبالأحياء، بينما تخرج لها النعال لسانها متربعة موفورة الإحترام بالفتارين فى ألق وسرور.. لماذا تقدمت النعال فاحتلت مكان الكتاب: نور العقل والمعرفة، ولماذا تابعت تقدمها وأزاحت رغيف الخبز من حيث كان متربعاً إلى وقت قريب بالأفران ومتاجر البقالة والسوبر ماركت، ليتخذ ـ وهو غذاء البطون ـ موقعاً مختاراً على قارعة الطريق، مفترشاً الأرض، فى مشهد مفزع يقول للدنيا إن خبزنا الذى نأكله وعليه نعيش يفترش الأرض، بينما الأحذية والنعال التى ندوس بها على الأرض، فى أعز مكان فى فتارين العرض؟!!

(*) ٢٠٠٦/٤/٢٩.

هذه الظاهرة ظاهرة محيرة، صعب أن تعزى فقط إلى غلبة رأس المال ويده الطولى أو الأطول على اختيار مواقع عرض تجارته.. قد نستطيع أن نفهم - دون أن نقر!! - تراجع سلعة الكتاب لأسباب مالية أمام سلعة الأحذية والنعال، فسوق الكتاب بارت أو تكاد، وهامش الربح يتضاءل مع قلة الإقبال.. حتى مهرجان القراءة للجميع، لم يفتح شهية الناس فتحاً حقيقياً للقراءة وإن فتح شهية البعض لإقتناء الكتاب، ربماً من باب الوجاهة والإستعراض والمباهاة، متشجعاً بالأسعار الزهيدة التى يطرحه بها المهرجان.. ومن الطبيعى والمؤسف معاً أن تتراجع متاجر الكتب، وتجارتها بارت، أمام تجارة الأحذية، وتجارتها راجت.. وقد نستطيع أن نتقبل بحث الكتاب عن زوايا أرضية ومساحات على الأرصفة لعرض نفسه بعد اختزال أعداد متاجر الكتب!! فتجربة سور الأزبكية التى تراجعت للأسف فى مصر، ومثيلاتها بالحى اللاتينى وعلى ضفاف السين بباريس، تحفظ للكتاب كرامته، أو بعض كرامته، إذا تلمَّسَ لنفسه مكاناً بفرشات الأرصفة بحثاً عن مكان بديل للمكتبات المتناقصة من ناحية، وطلباً لأنظار المارة - عل وعسى! - من ناحية أخرى!.. فالكتاب سلعة تعتمد فى تجارتها على العرض والجذب بأسماء الكتب وأنواع الموضوعات والمؤلفين.. كلها عناصر جذب تتسع فرصتها حين تقترب من أعين المارة فتشدهم من الفراغ والتسكع إلى رؤية ما قد يحرك أشواقهم إلى المعرفة!!

هذه التفسيرات - لا التبريرات! - صعبة البلع، ولكنها تفسيرات على أى حال، تدلنا على بعض أسباب مأساة تراجع الكتاب ومكتباته، أمام الحذاء ومتاجره.. تعيننا على هضم أو اجترار ما لا يهضم ولا يسهل اجتراره!.. فتراجع الكتاب تراجع للعقل.. ومعظم ما نعانيه من مشاكل ومعضلات مردود إلى تراجع العقل والثقافة، وزحف الإظلام والضحالة.. على أن الذى يخفف بعض هذه الغمة أن

بدائل الكتاب - وإن كانت لا تحل محله - تغطيها بنحو ما موجات الإذاعة وشاشات التلفاز والفضائيات، فضلاً عن صفحات الصحف والمجلات التى باتت تعانى هى الأخرى من نضوب القراءة الجادة لما تقدمه! ٠

مؤسف حتى النخاع هذا التراجع، ولكن المحير أكثر هو إنتقال "الخبز" وهو طعامنا وقوت غالبيتنا، من الأفران والبقالات والمتاجر، إلى إفتراش الأرض والتراب.. لا يستطيع المار فى أى شارع من شوارع وسط المدينة أو الأحياء أن يتجاهل هذه الظاهرة العجيبة التى لا يشاركنا فيها شعب من شعوب الأرض.. الأحذية والنعال التى نطأ بها الأرض، وندوس عليها، تحتل مكانها المتألق محفوفة بالكرامة والحفاوة والزينات بفتارين المحلات القشيبة، بينما رغيف "العيش" - تأمل مسماه! - يفترش الأرض والتراب!.. إهانة رغيف الخبز إهانة للحياة: حياتنا!.. فهم البسطاء من مئات السنين أهميته كعمود للعيش والحياة، نقاوم به الإملاق والفقر المدقع، فسموه بتلقائية: "رغيف العيش ".. عيشنا.. هذه التسمية التى جرت على لسان البسطاء - أعمق وأبلغ من أبلغ ما ينحته البلغاء وأساطين اللغة والبيان.. لست أعرف، ومن المحال أن نعرف، من أول من أطلق على هذا الرغيف أنه رغيف" العيش "؟. هل كان فيلسوفاً فهم من متابعة الكادحين العائشين تحت خط الفقر أن هذا الرغيف هو فعلاً سبيل عيش هؤلاء المعدمين الذين يقتاتون على الكفاف، فانطلقت تسميته بأنه رغيف "العيش "، أم كان ناحت صائغ هذا التعبير بسيط فقير من البسطاء المطحونين.. جرى به لسانه عفواً بما يحسه ويتغلغل فى حناياه من أن هذا الرغيف هو بالفعل سبيل عيشه، لا فرصة له فى العيش بدونه، وأين له ببديله، فهل كثير على هذا الرغيف أن يسبغ عليه أنه رغيف "العيش "!!؟

ما بالنا قد نزلنا برغيف العيش ليفترش الأرض والتراب، ولماذا شاع القبح حتى تبلدت الأحاسيس فلم نعد نرى المفارقة فى أن نرى غذاءنا ولقمات عيشنا تفترش التراب، بينما" النعال" سامقة المكان والمكانة تحتل المتاجر الفاخرة وفتارين العرض المتألقة.. ما الذى صعد بنعال الأرض إلى أعلى حيث هى، ونزل برغيف العيش إلى حيث يفترش الأرض التى ندوس عليها بذات هذه النعال؟! لماذا اعتادت عيوننا على هذا المشهد القبيح؟!.. ما الذى أفقدنا القدرة على الأحساس بالقبح والنفور منه، وما سر الكثبان الرملية التى زحفت فخبت بمشاعرنا وأحاسيسنا حتى تبلدت أو تكاد، وخفتت بطاقتنا الروحية حتى إنفصل عنا العزم الذى هو قاطرة الأفراد والأمم.. قبح هذه المشاهد المرئية المتجلى فى هذه المفارقات الحمقاء، قبح مادى.. ولكن القبح المادى ليس كل ما نعانيه.. خفوت الطاقة الروحية وشيوع التبلد وخبو شعلة الإنسان المتوقدة، ونضوب التفاته للقبح يتسرب بدوره إلى كثير من ظواهر القبح المعنوى التى تتجلى فى السلوك.. العجز الضرير عن الالتفات للعيب، وهو نوع مقيت من القبح، ينطوى على دعوة حتمية لتلاشى الجمال المادى والخلقى والقيمى والمبادئ.. هذا الخفوت فى الطاقة الروحية لا يحدث فى لحظة قصيرة من زمان!! ـ وإنما هو يتسلل تسللاً خفياً غير محسوس حتى يصير واقعاً ضخماً جاثماً على الفكر والسلوك!! لا يلبث الآدمى حينما تتمكن منه آفة الاعتياد، أن يفقد قدرته على الفرز والتقييم فلا يرى الأشياء والظواهر والسلوكيات بعين الواقع الفعلى لها، وإنما يراها بحكم ما تراكم فى داخله من اعتياد ضرير!! انتشار القبح الذى شاع فى حياتنا المادية والمعنوية، وفى تصرفاتنا وسلوكياتنا، مرجعه إلى انطفاء شعلة الروح المتوقدة المتيقظة.. الأدهى من هذا الانتشار المؤسف للقبح عدم انتباهنا إليه، وتعودنا عليه، بل وإفرازنا له ثم امتصاصنا إياه؟!.. أعلم أن قانون "العادة"،

قانون فاعل، تضمر به الحواس والملكات وقدرة التفطن، ويفقد به الآدمى قدرته على الالتفات لأنه محصور فى" شرنقة" ما حاصره واعتاده وخبت به أحاسيسه وانطفأت روحه! لذلك كان أذان المؤذنين، وأجراس الكنائس، هتافاً يتغيا إيقاظ الانتباه والضمير، واستخراج الآدمى من رخاوة ما اعتاده، وإيقاظه ليهب قائماً بما يجب عليه القيام به.. بلادة اعتياد القبح والاستسلام له تحتاج إلى قوارع وأجراس ترد إلينا الوعى الغائب أو المفقود!!!!